سيمياء العواطف من السيمياء الأدبية
لدوني بيرتران: Denis Bertrand

ترجمة: أ.عمي ليندة

جامعة تيزي وزو

(Paris VIII) **دوني بيرتران:** سيميائي فرنسي معاصر، وأستاذ أدب فرنسي بجامعة الفرنسية حيث يدرِّس نظرية الأدب والسّيمياء العامّة، تصبّ أعماله وبحوثه حول العلاقات بين الظّاهراتية، البلاغة والصّورية، كما يركّز أبحاثه في مجالين يمكن تصنيفهما ضمن السّوسيوسيمياء (السيمياء الإجتماعية): المجال الأول يتضمّن تدريس اللّغة والأدب الفرنسي، المجال الثاني يشمل دراسة الخطابات الإجتماعية، وتعزّز هذه النّشاطات المختلفة التي يقوم بها اختصاصه في سيمياء الخطاب.

من كتاباته "الفضاء والمعنى" (1985)، سيمياء الخطاب للحملة الإنتخابية الرئاسية 2007(2007)، السيمياء الأدبية(1972). ونظرا لأهمية هذه الكتب بالنّسبة للدّارسين المتخصّصين في مجال السّيمياء عامة، وسيمياء العواطف خاصّة، قمنا بترجمة الجزء الذي تناول فيه الكاتب سيمياء العواطف في كتابه السّيمياء الأدبية[1].

الفضاء العاطفي: تنبثق سيمياء العواطف مباشرة من الفرضيات النّظرية للسّيمياء العامة، إذ إنّ دراسة الأبعاد التّداولية والمعرفية للخطابات تركت فراغا تمثّل في إهمال الأحاسيس والعواطف والحالات الشّعورية المختلفة التي تمرّ بها الذّات، على الرغم احتلالها مكانة هامّة في الخطابات الأدبية.

إن إدخال هذا البعد الشّعوري جاء تدريجيا، حيث كان على الدّارسين في هذا المجال توخّي الحذر، ذلك أن الذّاتية ميزة العواطف والأحاسيس (العاطفة مرتبطة بالذّات)، وهذه الخاصية تجعل التّحليل السّيميائي للعواطف يتداخل مع التّحليل النّفسي.

الأمر الذي يجعلها تخرج عن مجال بحثها، غير أن الهدف الحقيقي الذي نسعى إليه كباحثين في هذا المجال هو بناء دلالة للبعد العاطفي في الخطاب، لأن العاطفة "أثر لمعنى" مُسجل ومشفّر في الخطاب، ولا تؤخذ العاطفة من جانبها العاطفي التّأثيري في الذّوات الحقيقية، بهذا فإن المكانة التي تشغلها العاطفة في التّمثيلات الثّقافية في الخطابات، ستسهم في إثراء الخيال العاطفي وتثمين عاطفة دون أخرى.

جاءت سيمياء العواطف كامتداد للسّيمياء العامّة، حيث إنّ الدّراسات السّابقة اعتمدت على البعد المعرفي والتّداولي للخطابات، ما ترك فراغا تمثّل في إهمال الأحاسيس والعواطف، التي تحتلّ مكانا هاما في الخطابات الأدبية، يمكن التّمييز بين مقاربتين سيميائيتين لإشكالية العواطف:

– **المقاربة الأولى** تُقِرُّ بأن سيمياء العواطف تنبثق من سيمياء الحدث فتتّخذ نماذجها كمنطق لها كما في "كتاب سيمياء العواطف لغريماس وفونتاني" sémiotique des passions: AJ.Griemas et J.fontanille (1991)" الذي اعتمدنا عليه كمرجع أساس للنّظرية في بحثنا هذا.

– **المقاربة الثانية** وتقرّ بأن البعد العاطفي ينبثق من الوضع المميّز لذات العاطفة بالمقابلة مع ذات المحاكمة Sujet de la passion ≠ Sujet de jugement وبالاعتماد على مختلف أشكال الهوية الذّاتية بدراسة الثنائية (عاطفة/عقل) (passion/Raison) بإعادة وصفها انطلاقا من نشاط هذه الثنائية في الخطاب، وقد وضّح هذه المقاربة **ج.ك. كوكيت** في كتابه "**السّعي وراء المعنى**" (J.CL.Coquet, la quête du sens 1997).

تمّ إدخال البعد العاطفي تدريجيا وبحذر في الدّراسات السّيميائية فالعواطف والأحاسيس تتميّز بارتباطها بالذّات، لذلك تستدعي دراستها الاهتمام بعلم النفس. وهذا ما يؤدّي بها أحيانا إلى الخروج عن مجالها، غير أنّ الرّهان بالنسبة للسّيمياء تمثّل في بناء دلالة لهذا البعد العاطفي في الخطابات، إذ لا تؤخذ العاطفة من جانب تأثيرها في الذّوات الحقيقية (الجانب النفسي)، بل من جانب كونها تنتج معاني مشفّرة ومسجّلة في

الخطابات، وهي بهذا تسهم في إنتاج تمثيلات ثقافية مختلفة تُثري الخيال العاطفي فيقوم بتثمين بعض العواطف دون الأخرى.

الحدث والعاطفة:

الفعل والإحساس: يرتبط تاريخ السّيمياء النّصية بالسّردية التي تعد نماذجها المكون الأساس للبنية الثابتة للخطاب، وتسهم الأولوية المعطاة للنص وشكلنة التّركيب السّردي، وتعميم البعد السيميوسردي في تشكيل بناء كل أنواع الخطابات (خطاب علمي، فلسفي....). إنّ أنموذج السّعي أصبح شكلا نظاميا، يرتكز على العلاقات الموجودة بين الذّات والموضوع، وتؤطّره مسارات المرسل المبنية بطريقة جدلية مع مسارات ضد الذّات ويدخل هذا في الإطار العام للمخطّط السّردي ويسمى البرنامج، وهو نواة النّحو السّردي ويوضّح كيفية تحقّق تحوّل حالات الأشياء في الخطابات والمبنية على أساس تحقّق ملفوضات الحالة عن طريق تركيب بدئي للإمتلاك أو المنع أو تقاسم القيم الموجودة في مواضيع مرغوبة: عطاء، تبادل، صراع....

تكوّن ملفوظات الصّلة (وصل، فصل وأضدادهما)، العملية القاعدية لهذا التّركيب وهي مبنية على أساس تقطُّع الحالات. ويكون التّحول مضمونا عن طريق ملفوظات الفعل.

غير أن هذا التّحليل الذي يضمنه الحدث (السيمياء السردية) يجعل من المواقع العاملية مراكز ثابتة، على الرغم من أنّها مكونة من مجموعة من الكفاءات المتنوّعة والمتغيّرة هذا لأنّها تُؤخذ من جانب هدفها التحوّلي أي فعلها (الفعل هو الذي يضمن التّحول). بالتالي لا يأخذ التّحليل بعين الإعتبار تغيّر حالات الذّات في مواجهتها للحدث سواء كانت مضطربة، غير متوازنة أو متقلّبة.

هذا التّحول ينتشر كمتغير متواصل، يتمركز حول الصّلة. وهنا يرتسم الفضاء العاطفي الذي هو العلاقة الموجودة بين الذّات والصّلة، مركّزا على الدّينامية الدّاخلية للحالات.

نجد le petit Robert يعرّف التّأثر الأولي (affect) على أنّه حالة شعورية أوّلية ويعرّف التّأثر affection على أنّه حالة نفسية ترافقها لذّة أو ألم. ثم يعرّف التّأثرية

affectivité على أنّها استعداد للتّأثر باللّذة أو الألم. ويعرّف العاطفة Passion على أنّها كل حالة شعورية وفكرية، قويّة بما يكفي كي تسيطر على حياة النفس(الإنسان) عن طريق شدة آثارها أو استمرارية حدثها.

تسمح بعض هذه الملاحظات بالكشف عن دلالة التّمثيلات العاطفية، إذ يركّز ما يسمى "عاطفي" علاقة الصّلة في مركز البرنامج السّردي فيوسّع فضاءها ويتوقف عند سير برامج الحدث، لكن بإعطاء عالم جديد للدّلالة كان مقنعا من قبل المقاربات السّردية البحتة، بهذا فإن الفضاء العاطفي ينتمي إلى ما يسمى "المتواصل".

العقل والعاطفة : تطرّقنا في دراستنا للتلفظ إلى أهم أركان نظرية الخطاب التي وضعها ج.ك. كوكيت في كتاباته: السيمياء الأدبية (1972)، الخطاب وذاته(1985-1984)، السعي وراء المعنى(1997).

إذ يعدّ كوكيت أنه لا يمكن الفصل بين عملية إنتاج الخطاب وبين التّجربة الملموسة والمُعاشة للحقيقة، كما أنه يعطي الأولوية الكاملة للخطاب الفعلي الذي يعتبره مسؤولا عن صيغة وجود الذات في العالم وعن هويتها، تعدّ السيمياء في هذه الحالة نوع من الظاهراتية الخطابية.

إن فضاء الدلالة منظم من مجموع من العوامل المحدَّدة بصيغة الصّلة تتطوّر هذه العوامل وتتغيّر من لحظة إلى أخرى في الخطاب، هذا ما يجعل مورفولوجيتها غير متوازنة وغير ثابتة، إذ تتّخذ هوية معيّنة في كل فعل كلامي.

يسمح لنا تحليل هذه التّغيرات باستخلاص صفات العوامل ونمذجتها، الأمر الذي يساعد على تحديد موقع ذات العاطفة استنادا إلى هذه النّمذجة، وتنقسم العوامل النّموذجية ثلاثة، تسمح لها طبيعة تموقعها بالإنتقال من مكان إلى آخر: "العامل الأول" هو مقسّم إلى هيئتين: اللاّ ذات والذّات، "العامل الثاني" هو الموضوع، "العامل الثالث" هو ما يشبه المرسل.

استنادا إلى هذه العناصر يمكن للتّحليل أن يصل إلى التّغيّرات النّاتجة عن العملية التّلفظية وتحديد التّحولات التي تحدّد موقع ودور الذّات، ويبقى العامل الأوّل بشقّيه في مركز الإشكالية لأنه هو الذي يحدد صيغ وجود ذات الخطاب.

أكّد ج.ك.كوكيت على أهمية الجانب المادي الحسّاس للدّال الذي يؤدّي إلى إقحام الجسد في الخطاب، الأمر الذي يسمح بظهور "بنية العاطفة" إلى جانب بنية الحكم العقلي الذي يكون على عاتق ذات الخطاب، تكون العاطفة إذن تابعة لهيئة اللاّذات، ويتم تحليل الوضع المزدوج: الظّاهراتي واللّساني لهيئة التّلفظ على المستوى المجرّد للعوامل التي تكون العلاقة فيها بين الذّات واللاّذات في غاية الأهمية، غير أن وضع اللاّذات يبقى غامضا. يبقى أن المقاربتين السيميائيتين للعاطفة: حدث/عاطفة، عقل/عاطفة، متكاملتان على الرغم من اختلافهما.

عناصر تحليل سيمياء العواطف:

* **تصييغ الحالات** Modalisation des états: تقوم دراسة سيمياء العواطف على الكفاءات التي تحدّد وضع الذّات والموضوع. وتظهر العاطفة من هذا المنظور كزيادة (Surplus) وكفائض (Excédent) بالمقابلة مع البنية الصّيغية، ففي سعي المحبّ مثلا إلى لقاء حبيبه، تكون كفاءة الذّات هي الرّغبة إلى جانب الإرادة، وتتموقع العاطفة وراء الرّغبة، فالحبّ والشّوق والولع بالمحبوب، إضافة الأحاسيس المختلفة التي تنتج عن العاطفة من تأثّر واضطراب وقلق ودموع وفرح تعدّ فائضا وزيادة مقابلة مع البنية الصّيغية التّي تمثّل الكفاءات، إنّ تصييغ الفعل يحدد كفاءة الذّات التي تكون بمثابة تنظيم تركيبي (Syntagmatique) أو إستبدالي (Paradigmatique). فمن الجانب الإستبدالي تملك الذّات شحنة صيغية معقّدة، متكوّنة من كفاءات متجانسة متعاكسة أو متناقضة تحدّدها في كل لحظة من مسارها. أمّا من الجانب التّركيبي فإنّ الشّحنة الصّيغية تبدو تراتبية وتطوّرية (Hiérarchisée et Evolutive) وهي عبارة عن كفاءة مهيمنة تحدّد الذّات وتجعل العناصر الأخرى (الذوات) تابعة لها فالرّغبة (vouloir) مثلا، تُسيِّر على طول المسار المعرفة والقدرة على الفعل. وهذا ما يمثّل "ذات الرّغبة" (Sujet de désir) ، كما يمكن أن تكون المعرفة هي التّي تمثّل الكفاءة المهيمنة فتطغى على الرّغبة ومعرفة الفعل لتشكّل "ذات القانون" (Sujet de droit).

إذا عدنا إلى سيمياء الحدث فإنّ التّنظيم التّركيبي للكفاءات، يمكن أن يقود إلى وضع نمذجة للذّوات، كما يسمح كذلك بفهم كيفية تطوّر البنية الصّيغية للذّات على طول

مسارها، وكيفية تغيّرها على طول الخطاب. وهذا المجموع من الكفاءات على الرّغم من كونه معقّدا، إلاّ أنّه يتركّز على ملفوظات الفعل(Enoncés de faire) أي يهتم فقط بمسارات الحدث، وهو بهذا يفترض توازن القيم في الموضوعات واستمرارية ما تهدف إليه الذات (Visée de sujet)، ويكون الاهتمام عندها بالفعل فقط فتبدو الذات عندها مضمرة، إذ تكون خاضعة لقالب وُضع لها، فتبدو شيئا جامدا لا يتفاعل مع الحدث، فهي لا تعرف تفاؤلا ولا ندما ولا قلقا.

انطلاقا من هذا يمكن أن يفهم العاطفي كتغيير لحالات الذات (Etats du sujet)، وهذا ما يسمح بظهور نوع جديد من العلاقات، تلك التي تحدّد "الوجود الصيغي" (Existence modale) وذلك بالاعتماد على ملفوظات الحالة (Enonce d'état).

* **كفاءات الذات** les modalités de l'être: إنّ تصييغ الذات يقوم بوصف صيغة وجود موضوع القيمة في علاقته مع الذات وهي بهذا لا تهتم بالعلاقات القصدية الموجودة فيما بينهما فقط بل بالعلاقات الوجودية (Existentielles)، كما أنّها تحدّد وضع ذات الحالة، فمثل هذا الموضوع يكون بالنسبة لها مرغوبا فيه أو مكروها، تتمنّاه أو تخافه، لا يمكن التّخلي عنه أو لا يمكن تحقيقه. أمّا حالتها النفسية (Etat d'âme) فتكون خاضعة للكفاءة المُستثمرة في موضوعات فضائها الخِلاقي (Horizon axiologique) وتتكون البنى السيميائية بالاعتماد على مستوى سابق من تقطيعات المعنى وهو المستوى التّيمي الذي سنتطرّق إليه فيما يلي:

ج-من التّيمي إلى التحليل الصيغي للعواطف: على المستوى النّظري اعتمدت سيمياء العواطف على ما يسمى بـ"الكتلة التّيمية" (Masse thymique) والتي تعني في القاموس الفرنسي Petit Robert (disposition affective de base Humeur)، أي المزاج وهو الاستعداد الشّعوري القاعدي، وقد استعانت السّيمياء بهذا المصطلح كمقولة دلالية عميقة (Catégorie sémantique profonde) وهي تعني العلاقة البدئية التي تربط بين الإنسان مع بيئته، وما يحسّه في هذا المحيط، سواء كانت هذه العلاقة ايجابية أو سلبية، وتسمى هذه العلاقة بـ "المِزاج" (Phorie) وهي تنقسم إلى مصطلحين متضادين النّشوة / ضد الإحباط، (Eu phorie/ VS/ Dysphorie) والمصطلح الحيادي (/A phorie/).

على مستوى البنى السّيميوسردية فإنّ الفضاء المزاجي يمثّل الفضاء الصّيغي الذي يُكوِّنه، حيث تتحقّق تغيّرات قيمة الموضوع في علاقته مع ذات الحالة، وتكون القيمة انطلاقا من هذا المعنى بنية صيغية أي مرتبطة بكفاءة الذّات، ومن هنا فإنّ الذات تملك وجودا صيغيا أي كفاءة معيّنة، يمكن أن يُعرقَل في أي لحظة عن طريق التّغيرات، التي يقوم بها ويفرضها على قيم الموضوعات، كالانتقال من موضوع مرغوب فيه إلى مكروه، ومن هنا فالوجود الصّيغي للذّات، يجعل القيمة في حركة دائمة، وهذا ما لا يترك المجال في فضاء الخطاب لذوات حيادية أو حالات لا مبالاة أو كفاءات منعدمة (compétences nulles)، لا تستطيع فيها الذّات أن تملك أيّ نوع من أنواع الكفاءة المعروفة.

وما دامت الظّواهر العاطفية في الخطاب تبدو في هيئة مركّبة، ومن خلال مسار معقد من الكفاءات، فهي تكون في أغلب الأحيان متناقضة وغير متوافقة، لذا فإنّ لتحليل آثار المعاني العاطفية كما تظهر في اللّغة والخطابات، لا يكفي الاعتماد على تصييغ الحالات فقط، لأنّه بهذا المنظور، لا يمكن التّفريق مثلا بين "المُقتصِد" (Econome) و"المُقَتِّرْ" (Avare) أو البخيل، فكلاهما يحدّد بـ/الرغبة/(Vouloir) و/يجب أن يكون/ (Devoir être) فيكونان موصولين مع مواضيع القيمة بإرادة قويّة في عدم الانفصال عنها وعندها يجب الاهتمام بالجانب العاطفي، الذي يظهر كزيادة وفائض في البنية الصّيغية ويتّضح هذا من خلال عمليتي "التّحسيس" (Sensibilisation) و"التّهذيب"(Moralisation) وهما العمليتان اللّتان تؤطّران التّنظيمات العاطفية.

نمذجة: تتموقع الكفاءات (رغبة، وجود، معرفة، قدرة) في المربّع السيميائي الذي يقترح التّصنيف القاعدي للتّركيب الصّيغي للحالات كالآتي:

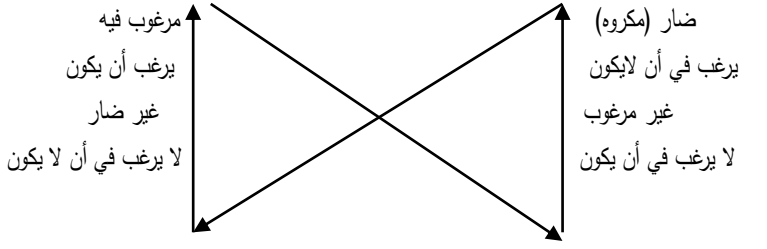

ويمكن لنا على هذا النّموذج نفسه أن نقوم بعملية التّقطيع كالآتي:

/يجب أن يكون/(لازم)، /لا يجب أن يكون/(الغير)، /يجب أن لا يكون/(غير متحقّق)، /لا يجب أن لا يكون/ (متحقّق)، /يعرف أن يكون/(حقيقي)، /لا يعرف أن

يكون/(غير معروف)، /يعرف أن لا يكون/ (وهمي)، /لا يعرف أن لا يكون/ (لايُعرف) /يقدر أن يكون/(ممكن)، / لا يقدر أن يكون/ (مستحيل)، / يقدر أن لا يكون/ (يمكن تفاديه)، /لا يقدر أن لا يكون/ (لا يمكن تفاديه).

تُترجم الظواهر العاطفية في الخطاب عن طريق مجموع متداخل ومعقّد من الكفاءات، تكون في معظم الأحيان متناقضة وغير متجانسة، ولأجل تحليل آثار المعاني العاطفية كما يظهر في اللغة والخطابات لا يكفي الاعتماد على تصييغ الحالات فقط، لأنّه بهذا المنظور، لا يمكن التّفريق مثلا بين "المُقتصِد" (Econome) و"المُقَتِّرْ" (Avare) أو البخيل، فكلاهما يحدّد بـ/الرغبة/(Vouloir) و/يجب أن يكون/ (Devoir être) فيكونان موصولين مع مواضيع القيمة بإرادة قويّة في عدم الانفصال عنها، وعندها يجب الاهتمام بالجانب العاطفي، الذي يظهر كزيادة وفائض في البنية الصّيغية. ويتّضح هذا من خلال عمليتي "التّحسيس" (Sensibilisation) و"التّهذيب" (Moralisation)، وهما العمليتان اللّتان تؤطّران التّنظيمات العاطفية.

الهوامش:

1- Denis Bertrand, **Précis de sémiotique littéraire**, Edition Nathan HER, Paris, 2000.